



التقديم والتأخير في المقاطع القرآنية ومواقف العلماء منها  
(دراسة تحليلية نموذجية)

*Scholars' Views About Taqdīm and Ta'kīr in Qur'anic  
Syllables An Analytical Discourse Study*

*Dr. Habibullah Khan\**

*Assistant Professor, Faculty of Arabic Language, International Islamic University, Islamabad.*

*Dr. Muhammad Ayub Rasheedi\*\**

*Assistant Professor, Faculty of Arabic Language, International Islamic University, Islamabad.*

**Abstract**

*Qur'an remains the source of dynamic researches in this world at all times. Many scholars belonging to different sects of mind, religion, faith and creed have formally made multidimensional researches related to this Holy Text. They, from their own opinions, extracted a lot of results from this Text while criticizing others' opinions in this context. The major rhetorical point in this regard is about 'Saj': functioning ability, loyalty and constancy. Many scholars consider 'Saj' rational in Holy Qur'an rather than irrational. Keeping this point in view they proclaimed that 'Saj' as itself in Qur'an was considered without binding it to the meanings. They extended this point to two other major qualities of Qur'anic Rhetoric; 'Al-Taqdīm' and 'Al-Ta'kīr'. They, most of time, said that 'Saj' was basically resulted from 'Taqdīm' and 'Ta'kīr' which had been used to celebrate just words uttering beauty and nothing more. In contrast to it, 'Taqdīm' and 'Ta'kīr' both have principled relation to the words' meanings and meanings of meanings.*

*The following article shall discuss the forehead issue in detail along with right criticism of the scenario.*

**Keywords:** 'Saj', 'Taqdīm', 'Ta'kīr', Space, Rationality, Irrationality.



من عجبٍ أن يزعم زاعم أن القرآن يقصد إلى المغايرة في نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة، أو حفاظاً على السجع، في الوقت الذي يرى فيه النقاد ضرورة ائتلاف اللفظ والوزن في الشعر، ويعيبون منه ما خرج على غير النسق المعهود في ترتيب الكلام لتصحيح الوزن، يقول قدامة في كتابه "نقد الشعر" تحت عنوان "ائتلاف اللفظ والوزن": "وهو أن تكون الأسماء والأفعال في الشعر مستقيمة كما بنيت، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة والنقصان منها، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها، وهي الأقوال، على ترتيب ونظام

لم يضطر الوزن إلى تأخيرها ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيرها منها"<sup>(1)</sup>

فإذا كان التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيباً في الشعر، وهو أمس حاجة إلى التسهيل، بحكم ما فيه من التزام الأوزان والقوافي فإن القول به مراعاة للفاصلة أعيب، لما هو مقرر في عرف هذا اللسان من أنه يباح في النظم ما لا يباح في النثر؛ لأن الناظم محكوم بقيدين: الوزن والقافية، والناثر محكوم بقيد القافية وحده، وحتى هذا القيد بإمكانه الخروج عنه بتنوع القوافي في سجعه.

إننا لو نظرنا إلى القرآن على أنه نص أدبي نثري، وأجريناه عليه قواعد النقد العربي، منها هذا الأصل الذي أشار إليه قدامة لحكمنا عليه بعدم تمكن فواصله، لإضطراره إلى التقديم والتأخير حفاظاً عليها طبقاً لهذا الزعم، فما بالك بنص معجز؟

لقد استهجن العلامة الزمخشري مثل هذا القول فيما نقله السيوطي عن الكشاف القديم: "لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها، إلا مع بقاء المعاني على سردها، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتتامه، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده، غير منظور إلى مؤاده، فليس من قبيل البلاغة"<sup>(2)</sup>.

وبالرغم من أن السيوطي نقل هذا عن الكشاف، فإنه نقل في مقابله عن شمس الدين بن الصائغ نصاً طويلاً، يستدل فيه على أن القرآن يرتكب مخالفة الأصول مراعاة للتناسب بين الفواصل، وأحصى من ذلك نيفاً وأربعين موضعاً، ثمانية منها قدم فيها ما حقه التأخير"<sup>(3)</sup>.

ثم توسع المفسرون حتى أحالوا معظم التقديم في الفواصل إلى هذا الغرض وحده، وبمثله قال بعض أهل البيان. حتى إن ابن الأثير لم يجد حرجاً في تغيير السبك، ومخالفة الأصل في ترتيب الألفاظ، من أجل حسن النظم السجعي، فقال رداً على العلامة الزمخشري، الذي ذهب إلى أن تقديم المفعول للاختصاص في قوله - تعالى: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" قال ابن الأثير: "فإنه لم يقدم المفعول فيه للاختصاص، وإنما قدم لمكان نظم الكلام؛ لأنه لو قال: نعبدك ونستعينك لم يكن له الحسن ما لقوله "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" ألا ترى أنه تقدم قوله - تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ" فجاء بعد ذلك قوله: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" وذلك مراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون، ولو قال: نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن"<sup>(4)</sup>.

إن يقيننا بجمال التوافق في المقاطع وأثره في استعماله الأسماع والقلوب لا يحملنا على قبول القول بأن " لهذه الموسيقية أثرها في النفس، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرانياً" (5).

فلا شك أن هذه المناسبة أمر مرعى لكن تغيير نظم الآي من أجلها، إنما هو ضرب من الضرورات نجل القرآن عن مثله.

وإذا كان الفراء من قبل حاول أن يربط بين مراعاة الفواصل في القرآن وتناسب القوافي في الشعر، واستباح تغيير النظم في رؤوس الآي لتحقيق هذا التناسب، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى التثنية في قوله – تعالى –: "وَلَمَّا خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جُنَّتَانِ" على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشكلة رؤوس الآي، فإنه قد وجد من تصدى له وقسا في الرد عليه على ما نقله السيوطي: "وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه، وقال: إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت، أو الألف، أو حذف همز، أو حذف، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآي معاذ الله" (6).

لا أحسب أن فنا من فنون البلاغة تعرض عند تطبيقه على النظم القرآني لخطأ الرأي كما تعرض له السجع، بين مفرد يغالي في رفضه، تنزيهاً للقرآن عن شائبة تكلف واستكراه للألفاظ كالبلاقلاني، ومفرد يباليغ في احتفاء القرآن به لدرجة يدعي فيه إكراه المعاني على ارتداء ما لا يناسبها من الألفاظ، حتى زعم أن القرآن يختار من الأعداد ما يشاكل رؤوس الآي وإن خالفت حقيقة المعدود، كما في قوله –تعالى–: "وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ" (7).

وقوله – تعالى –: "عَلَمَهَا تِسْعَةَ عَشَرَ" (8).

فلا حاملون للعرش ثمانية، ولا خزنة جهنم تسعة عشر، ولكنها السجعة التي قبضت بزمام النظم، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

نحن نقول مع الأستاذ علي الجندي: "لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية، تكسب الكلام أناقة وحلاوة، وتجعل له وقعاً ندياً على السمع والقلب، ولكننا لا نستطيع بحال أن ننزله هذه المنزلة الخطيرة التي يستباح معها الخطأ في الكلام، والتي تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر، وبخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله" (9).

هذه هي النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن "فالبلاغة من حيث هي فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي.

هذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية، بدلالاتها المعنوية المرهقة، ونسقتها الفريد في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي، يكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها البيانية" (10).

وهذه النظرة المعتدلة نرى أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم، وهو من جلي القرآن وروافد تأثيره، لكننا ننزه القرآن عن أن يقهر المعاني - في سبيل تحقيق هذه الغاية - على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدث في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفاً لترتيبها في الجنان. وقد حاولت جاهداً أن أسمع لهمس السياق، وأنعم النظر فيما قيل فيه بمخالفة الأصل في الترتيب لتناسب المقاطع، بحثاً عن أغراض النظم وراء هذه المخالفة، هادفاً - دون شطط أو تكلف - إلى الكشف عما صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان. بيقين منا أن كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنظم الذي يتعاقب فيه حسن اللفظ وسمو المعنى .

### الترتيب بين المتعاطفات

من المواطن التي قيل فيها إن القرآن غير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، تقديم الأرض على السماء، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه، وقد راعى القرآن الأصل في معظم المواطن التي اقترنت فيها السماء، فقدم السماء، إلا بعض المواضع القليلة التي تقدمت فيها الأرض، فقيل إن تقديمها لغرض تحقيق السجع، يقول المرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج: "ورد في القرآن عشرات المرات ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة ومجموعة، وفي هذه المرات جميعها نجد أن السماء أو السموات مقدمة على الأرض إلا في مواضع قليلة جداً قدم فيها ذكر الأرض، ويتجلى في موضعين؛ وذلك من أجل تناسب الفواصل. فمن ذلك قوله - تعالى - " تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى \* الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" (11) فإن فواصل السورة على الألف، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السموات، التي وصفت بوصف (العلی) المختوم بالألف. ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بين الأرض والسماء في الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله، فقدمت السموات على الأرض "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ" التُّرَى" (12).

ومن ذلك أيضا قوله - سبحانه -:

"رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ" (13).

فقد قدمت الأرض على السماء في هذه الآية، لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبنية على الهمزة" (14).

وحيث تنتبع ورود السماء والأرض معطوفة إحداهما على الأخرى في القرآن الكريم نجد ما يربو على مائتي موضع تقدمت فيها السماء على الأرض، جرياً على الأصل من تقديم الأشراف، والأدل على قدرته – تعالى – في مجال الامتنان بعظيم خلقه، وعجائب صنعه، وتقدمت الأرض على السماء في ثلاثة عشر موضعاً ليس من بينها سوى موضعين وقعت السماء فيهما فاصلة، وموضع واحد وقعت فيه موطنة للفاصلة، فإذا اعتدنا بمثل هذا القول الذي يعتبر التقديم فيها لمجرد رعاية الفواصل، فإن عشرة مواضع تقدمت فيها الأرض وليست فاصلة يصبح تقديمها عارياً من الفائدة، وهو ما لا يصح وقوعه بحال في بيان معجز.

على أن أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الروى والوزن، وذلك قوله – تعالى -: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ \* نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ \* مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ \* إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ \* هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (15).

فالفواصل: "القيوم، الإنجيل، انتقام، السماء، الحكيم".

لم تتفق فيها اثنتان في حرف الروى، وتغاير الرفع فيها بالواو والياء والألف، وليس مثل هذا مما يتغير نظم الكلام من أجله.

إن القصور في فهم أسرار التقديم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التقدم في الزمان والشرف، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زماناً أو أعلى رتبة فقد مرجحات تقديمه، فإذا وقع فاصلة كانت هي الغرض، مع أن أسباب التقديم متعددة أشار إليها السهيلي بتركيز شديد في قوله: "ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء، إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال، فإذا سبق معنى من المعاني إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق. نعم ربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل، لا بحسب المعنى، كقولهم: ربيعة ومضر، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل، ولكنهم آثروا الخفة؛ لأنك لو قدمت "مضر" في اللفظ كثرت الحركات وتوالت، فلما أخرجت وقف عليها السكون" (16).

فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعنى، وسبباً لفظياً جرى عليه لسان العرب في الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة.

ثم إن هذه الأسباب تختلف في ذاتها طبقاً لمواقعها ودواعي السياق، فمثلاً التقدم في الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلى، وهذا فسر السهيلي تقديم السماء على الأرض تارة، وتقديم الأرض أخرى، فقال: "وأما تقديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضاً وبالفضل والشرف، وأما تقديم الأرض من قوله – تعالى -: "وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ" فيالرتبة؛ لأنها منتظمة بذكرها ما هي أقرب إليه، وهم المخاطبون بقوله: "وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ" فافتضى حسن النظم تقديمها مترتبة في الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها" (17).  
ثم إن التقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل، وقد يعكس على سبيل الترتي من الفاضل إلى الأفضل، وقد بين وجه ذلك ابن المنير فقال: "وجه البداية بالأفضل الاعتناء بالأهم فقدم، ووجه عكس هذا الترتي من الأدنى إلى الأعلى، ومنه قوله:

"بها ليل منهم جعفر وابن أمه على ومنهم أحمد المتخير"

هذا الترتي من الأدنى إلى الأعلى هو الذي أوجب تقدم الأرض في قوله - تعالى:-

"لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ"

في سورة آل عمران. وما شابهها من سورة إبراهيم، وهما اللتان وقعت فيهما السماء فاصلة؛ لأن العلم بما خفي في الأرض دون العلم بما خفي في السماء لعظم خلقها وسعتها، فبدأ بنفي فوات شيء عن علمه من أسرار الأرض، مترقياً إلى شمول علمه بما دق من أسرار السماء، كما ترقى من النهي عن الأدنى إلى النهي عن الأعلى في قوله - تعالى -:

"فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا"

وكما ترى في نفي إعجاز الكافرين له في قوله - تعالى -:

"وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ"

فهم لا يستطيعون الهرب في الأرض الضيقة الصغيرة، ولا في السماء العظيمة المتسعة، وليست السماء هنا فاصلة، حتى يقال إن التقديم فيه رعي للتناسب.

فإذا ما صحب هذا الغرض توافق المقاطع وتآخى أجراسها كان ذلك حسنا على حسن. وقد مس ذلك العلامة أبو سعود مسا رقيقاً في كشفه عن سرتقديم الأرض في آية إبراهيم، فقال: "وتقديم الأرض على السماء مع توسيط "لا" بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا" (18).

مشيراً إلى أن إبراهيم - عليه السلام - حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعاني في جنانه، بادئاً بالأرض، وهي ما خفي من علمها على الإنسان دون ما خفي عليه من علم السماء .

أما آية طه التي احتج بها الشيخ تاج فقد وقع الإمام البيضاوي على سر دقيق لتقديم الأرض يكشف عنه قوله : "تفخيم لشأن المنزل بغرض تعظيم المنزل بذلك أفعاله وصفاته على الترتيب الذي هو عند العقل، فبدأ بخلق

الأرض والسموات وهي أصول العالم، وقدم الأرض؛ لأنها أقرب إلى الحس، وأظهر عنده من السموات" (19).

نظر - رحمه الله - في ترتيب المعاني وصورها في الألفاظ إلى حركة العقل في توجيهه لإدراك حقائق الخلق، توصلهاً منها إلى الخالق فهو يدرك ظواهر الأشياء أولاً، ثم ينفذ منها إلى خوافيها، لذا كان نسق الآيات متجاوباً مع هذه الحركة العقلية، فقدم القرآن بين يدي تعظيم المنزل صفات الأفعال على صفات الذات، فبدأ بخلق الأرض

والسموات "تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى" والخلق صفة فعل، وهي تابعة في الوجود لصفة الذات، وهي الرحمة التي بها كان الخلق، ثم جاء قوله – تعالى –: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" ربطاً للمحسوس بالمعقول، واهتداء بالشاهد على الغائب، وبالأثر على المؤثر، ثم كان البدء بالأرض في صفة الخلق هو الأحق، لقربها من الإنسان، وظهور العلم بها، انطلاقاً إلى العلم بما هو أعظم وأخفى، فليس الترتيب هنا بين الأرض والسموات ترتيب وجود، ولا ترتيب تعظيم، وإنما هو مسابرة لحركة العقل في إدراك حقائق الأشياء حسب قربها وظهورها، بغية الاستدلال بالقريب الأظهر على البعيد الأخفى.

وقد جاء تعليق الشهاب غاية في الدقة على قول البيضاوي: "على الترتيب الذي هو عند العقل" قال الشهاب: "لأنه يدرك أفعاله أولاً، ثم يستدل بها على سائر صفاته، ولذا قدم الخلق، وثنى بالرحمة التي تتناول الموجودات قبل كل شيء؛ لأن الخلق منها، وليس الترتيب بحسب الوجود، فإنه بعكسه، ولذا قدم الأرض" (20).  
على أنني ألمح في تقديم الأرض بين يدي مواساة الله لنبيه، وإزالة ما سببه له إعراض قومه من آلام وأحزان، كما ينبئ عنه قوله تعالى :-

"مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى"

ألمح الارتباط بين الشقاء وموطنه وهو الأرض؛ فكان البدء به هو الأليق ببلاغة النظم، وذلك هو الترتيب في الذكر الذي أشار إليه السهيلي فيما نقلناه عنه.

والعلم في الاستشهاد بالتقديم لمراعاة الفواصل قوله – تعالى –: "فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى" وهو ما اعتبره المثبتون للسجع في القرآن دليلاً على أن تناسب الفواصل مقصد من المقاصد التي يعمد إليها القرآن، ويغير من أجلها نظم الكلام. بدليل أنه الموضوع الوحيد الذي قدم فيه هارون على موسى تجاوباً مع إيقاع الفواصل المبنية على الألف.

يقول أبو بكر الرازي في مسأله: "فإن قيل: كيف قدم هارون على موسى – علمهما السلام- في قوله – تعالى –: "فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا أَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى" وهارون كان وزيراً لموسى – عليه السلام – وتبعاً له. قال الله – تعالى –: "وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا". قلنا إنما قدمه ليقع موسى مؤخراً في اللفظ فيناسب الفواصل، أعني رؤوس الآيات" (21).

وأضاف الخطيب الإسكافي الحذف إلى التقديم في هذه الآية لتحقيق هذا التناسب، فلم يذكر "رَبِّ الْعَالَمِينَ" كما جاء في سورتي الأعراف والشعراء مراعاة للفواصل كذلك، وهو ما تردد في كتب المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، يقول صاحب المنار: "فإن قيل: ولم لم يذكر في سورة طه إيمانهم برب العالمين؟ ولم أخر فيها موسى وقدم اسم هارون؟ فالجواب عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور، بما لا يعارض غيره مما ورد في غيرها" (22).

إن القول بحذف "رَبِّ الْعَالَمِينَ" من سورة طه لمجرد التشاكل إهمال لما بنيت عليه هذه السورة من الإيجاز في تصوير هذا الحدث، كما يدل عليه ترتب سجود السحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء، دون ذكر إلقاء موسى عصاه، وهو ما تفردت به سورة طه .

أما تقديم هارون على موسى فقد تكاثرت فيه التعليقات، ولعل أقرب الآراء إلى القبول ما ذكره الدكتور محمد محمد أبو موسى معتمداً على وحي السياق، وهو أن بدء السحرة: "بمن ليس أفضل دال على إظهار قوة الافتناع بالحجة والإيمان بها، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون، ولم يكن هو الغالب، وليس في تقديم موسى الذي لَقَّتْ عَصَاهُ مَا صَنَعُوا شَيْئًا يَلْفِتُ؛ لأنه هو الأصل، أما تقديم من لا دخل له في المعجزة التي عليها آمنوا فهو الأمر اللافِت؛ لأنه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أن سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشاداً جعل موسى - عليه السلام - يقول بعد ما جعلوا موعدهم يوم الزينة: "وَيْلَكُمْ لَا تَنْفَتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْجِتَكُمْ بَعْدَآبٍ" (23). (24).

وقد بدا لي رأي هو امتداد لما ذكره الدكتور محمد أبو موسى وتوسيع لدائر السياق. تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترتي بعد أن كان ذكره في السورتين على سبيل التبعية.

أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون في هذه السورة وحدها فهذا ما يفصح عنه السياق، حيث جاء في دعاء موسى من هذه السورة: "وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي \* هَارُونَ أَخِي \* اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي \* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي" (25).

فهي السورة الوحيدة التي صرح فيها بهذه المشاركة، وهي أقوى في إبراز دوره من قوله في سورة الشعراء "فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ" (26) وهي الوحيدة بين السور الثلاث التي طلب فيها من ربه أن يجعله وزيراً. وقال في هذه السورة: "فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ" (27).

فأبرز بتثنية الرسول استقلال هارون، في حين ظهرت تبعيته في أفراد الرسول من سورة الشعراء "فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

واستمراراً لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة في الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر: "قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ جَانٌّ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمُ الْمُثَلَّىٰ" (28).

فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى في مجابهة القوم، أما في سورتي الأعراف، والشعراء، فقد أفردوا موسى - عليه السلام - بوصف السحر، وتوارت شخصية هارون تماماً فجاء في سورة الأعراف: "قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ \* يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ" (29).

وفي سورة الشعراء: "قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاجِرٌ عَلِيمٌ \* يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ" (30).

كل ذلك جعل من تقديم هارون في سورة طه إبرازاً لدوره، وتركيزاً على مشاركته في الأحداث، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترتي من البدء بالأفضل فالأفضل، بخلاف ذكره بعد موسى في مثل سياقاته فإنه يوحى بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك.

ومما قيل بالتقديم والتأخير فيه مراعاة للتناسب قوله – تعالى –: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" (31).  
بناء على أن العبادة تتطلب الاستعانة بالمعبود للتوفيق إليها، أو كما قال السيد الشريف: "العبادة لما كانت تقرهم إلى مولاهم بأفعالهم، والاستعانة طلب لِفعل المولى كان تقديمها على العبادة أولى" (32).  
فوجد البعض في تناسب الفواصل السبب في العدول عن الأصل، بل عدوا هذه الآية دليلاً على قصد القرآن إلى السجع وتغيير نسق الكلام من أجله. (33).

كان العلامة الزمخشري من أوائل من تنبه إلى أن التقديم وراءه سر يتعلق بأغراض النظم: "فإن قلت: لم قدمت العبادة على الاستعانة؟ قلت: لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها" (34).

وأضاف أبو السعود: "لأن العبادة من حقوق الله - تعالى - والاستعانة من حقوق المستعين" (35).  
فالتقديم في رأي العلامة الزمخشري من تقديم العلة على المعلول، وعلى رأي أبي السعود من تقديم الأشراف. وذهب الإمام البيضاوي إلى أن ذكر الاستعانة بعد العبادة من باب التكميل والاحتراس، فقال: "لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبججاً واعتداداً منه بما يصدر عنه، فعقّبه بقوله: "وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" ليدل على أن العبادة أيضاً مما لا يتم ولا يستتب إلا بمعونة منه وتوفيق" (36).

"فجاء تقديم العبادة على الاستعانة ليوافق ترتيب الألفاظ ترتيب معانيها، فيرشد الترتيب الذكري للترتيب الخارجي" (37).

هذا قليل من كثير في بيان سر التقديم، مما حفلت به كتب التفسير، وهو – في نظري – إغراق لا يخلو من التكلف، وهو إلى جدل المناطقة أقرب منه إلى ذوق البيان.

ذلك أن تقديم المفعول على فعلي العبادة والاستعانة بدلالته على الحصر، يجعل تخصيص الاستعانة بالله وحده أرقى درجة من تخصيصه بالعبادة؛ لأن الأولى تخلص من الشرك الظاهر، والثانية تخلص من الشرك الخفي، فكم من عابد يخلص لله العبادة، لكنه لا يستطيع إخلاص الاستعانة به، على ما تقضى به طبيعة التعجل في النفس البشرية ورغبتها في تحقيق ما تصبو إليه، وما يصاحب ذلك من مشاعر القلق والخوف مما يدفع إلى الركون لغيره – سبحانه – في تحقيق أغراض النفس. فكان حصر الاستعانة في الله وحده مرحلة من

مراحل اليقين لا يصل إليها إلا صفوة المتقين، وصار إخلاص العبادة هو السبيل إلى هذه الدرجة من الثقة بعون الله والاطمئنان إليه، حتى لا يلوذ العابد في طلب حوائجه إلى غير مولاه.  
لعل الإمام الخازن في أحد وجوه ذكرها رمق هذا المعنى بقوله: "إن الاستعانة نوع تعبد، فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً" (38).

إن القول بأن "العبادة تقرب للخالق - تعالى - فهي أجدر بالتقديم في المناجاة، وأما الاستعانة فهي لنفع المخلوق للتيسير عليه، فناسب أن يقدم المناجي ما هو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك" (39).  
هذا القول يقيس العلاقة بين الله وخلقه بمقاييس العلاقات بين المخلوقين، فيقدم العبد من العبادة ما يستحق به الإعانة، إن طلب العون من الله دعاء، والدعاء قمة العبادة، وتركه يستوجب العذاب، وقد فسرت به العبادة في قوله - تعالى - "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ" (40).

وفي الحديث: "الدعاء هو العبادة" (41).  
فدل - عليه السلام - بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات. وعلى ذلك فالترتيب جاء في الآية على الأصل من عطف الخاص على العام.  
ومما تداولته الأقلام مثلاً لرعاية الفواصل وتغيير النظم من أجلها، تقديم الآخرة على الأولى في قوله - تعالى -:  
"فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى" (42).

وتقديم موسى - عليه السلام - على إبراهيم - عليه السلام - في قوله - تعالى -: "أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى \* وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى" (43).  
وتقديم البطون على الجلود في قوله - تعالى -: "هُذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لُهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ \* يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ \* وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ" (44).  
وتقديم الإناث على الذكور في قوله - تعالى -: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ \* لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثَاءً وَمَهَبَ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ" (45).

وتقديم "شقي" على "سعيد" في قوله - تعالى -: "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن كَانَ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ \* وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ \* يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ \* فَأَمَّا الَّذِينَ شَفَعُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ" (46).

وتقديم العشي على الإيكار في قوله – تعالى: "قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا \* فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" (47).

وتقديم الأعمى على البصير، والظلمات على النور في قوله – تعالى: "وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ \* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ" (48).

بعد إمعان النظر في هذه الآيات الكريمة وسياقاتها وصلت إلى نتيجة أن التقديم الذكري فيها ليس لمراعاة الفاصلة وحدها، بل وراءه من أسرار الإعجاز ما لا تحيط به الأقلام، وتقتصر عن إدراك كنهها الأفهام، ولا يتطلع عليها ولا يستكشفها إلا من له يد طولى في البلاغة العربية، ويداوم النظر في النظم القرآني، ولا يركن إلى اليأس، ولا يسرع إلى القول بتناسب الفواصل .

### ترتيب الصفات

من الأدلة التي ساقها ابن الصائغ على القصد إلى تحقيق التناسب في الفواصل، ومخالفة الأصول في سبيل ذلك، تقديم الأبلغ من الصفات، على غير ما تقضى به قاعدة الترتي من تأخير الأبلغ، ومثّل لذلك بقوله –تعالى-:

"الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" (49).

وقوله: "رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (50).

وقد أطل المفسرون الوقوف لبيان الفرق بين الرحمن والرحيم، وسر تقديم الرحمن، وهم يكادون يجمعون على أنهما من أمثلة المبالغة في الرحمة، وأن صفة الرحمن أبلغ، بحكم أنها أكثر مبنى فهي أغزر معنى، ولذا خص الله –تعالى- نفسه بهذه الصفة حتى لا يصح أن يوصف بها أحد من خلقه، بخلاف صفة الرحيم التي وصف بها رسوله: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (51).

ووصف بها المؤمنين: "مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ" (52).

لكنهم تغايرت آراؤهم في سر تقديم الرحمن، وأشهرها ما قاله العلامة الزمخشري: "فإن قلت: فلم قدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترتي من الأدنى إلى الأعلى، كقولهم: فلان عالم نحير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال: "الرحمن" فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه "الرحيم" كاللتممة والرديف، ليتناول ما دق منها ولطّف" (53).

"كان القياس تقديم أدنى الوصفين؛ لأن في تقديم أعلاهما، ثم الإرداف بأدناهما نوعاً من التكرار، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول ما دونه، فذكره بعده غير مفيد" (54).

لذلك كان عكس ما يقضي به القياس بحاجة إلى البيان. فخص العلامة الزمخشري الرحمن بعظائم النعم وجلائلها، والرحيم بما دق منها ولطف، فكان ذكر الرحيم على سبيل التتميم حتى لا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته، فيحتشم عنه من سؤالها" (55).

إلا أن تخصيص الرحمن بجلائل النعيم، والرحيم بدقائقها مما لا دليل عليه، بل إن الله - تعالى - كثيراً ما يذكر جلائل النعم وأصولها، ويعقبها بصفة الرحيم وحدها، فقد ذكر الله - تعالى - جليل نعمه على الإنسان في مطلع سورة النحل، وعدد منها خلق الملائكة، والسماوات والأرض، وخلق الإنسان، وما سخره له في الأرض من الأنعام والخيول والبغال والحمير، وما أنزل من السماء من ماء أنبت به الزرع والنخيل والأعشاب، والليل والنهار، والشمس والقمر، والفلك والبحار، والجبال والأنهار، ثم عقب ذلك كله بقوله: "وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" (56).

ولا شك أن هذه نعم جليلة، وتسخيرها للإنسان دليل على بالغ رحمة الله به، ومع ذلك عللت بصفة "الرحيم". خير ما قيل في تعليل الجمع بين الوصفين بما يظهر بلاغة النظم الحكيم في تقديم الرحمن ما قاله ابن القيم: "وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به - سبحانه -، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمن صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: "وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا"، "إِنَّهُمْ رَوْفٌ رَحِيمٌ"، ولم يحى قط رحمن بهم، فعلم أن (رحمن) هو الموصوف بالحرمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها" (57).

تأسيساً على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل؛ لأن صفة الفعل ناشئة عنها، فهي بمنزلة المسبب من السبب، ولعل ذلك هو الذي استلهمه الشيخ الطاهر بن عاشور في قوله: "وتقديم الرحمن على الرحيم؛ لأن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها" (58). أما تقديم الرؤوف على الرحيم في قوله - تعالى -: "وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَمًا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ" (59).

فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن تقديم الرؤوف وهو الأبلغ، للمحافظة على تناسب رؤوس الآي ومنهم الإمام البيضاوي الذي رد عليه الشهاب بقوله: "هو بناء على تفسير الرأفة بأشد الرحمة، وحينئذ المناسب رحيم رؤوف، وفيه نظر من وجهين: الأول: أن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالجع، كما هنا في "رحيم" و "تعملون" فذلك حاصل على كل حال، والثاني: أن الرأفة حيث وردت في القرآن قدمت، ولو في غير الفواصل، كما في قوله - تعالى -: "رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا" في وسط الآية.

والذي غره كلام الجوهرى وهو عندي ليس بصواب، فإن الرأفة معناها الشفقة واللطف، والرحمة الإنعام، ورتبتها التقديم، كما قيل: الإيناس قبل الإيساس، وعليه استعمال العرب قال قيس بن الرقيات:  
 "مُلْكُهُ مُلْكُ رَأْفَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءٌ"  
 وانظره كيف أوضع معناها بالتقابل، ومثله كثير في كلام العرب" (60).

لقد أحسن الشهاب كل الإحسان في الوجه الثاني الذي رد به كلام الإمام البيضاوي، لكننا لا نسلم له بالوجه الأول؛ لأن الفواصل في الآيات وإن لم تكن متحدة الروى، فإنها متقاربة، والميم والنون حرفان متقاربان، وعليهما بنيت معظم فواصل القرآن، واستبدال الفاء بالميم يذهب بتوافق المقاطع وجمل موسيقاها. يقول مصطفى صادق الرافعي: "وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون والميم، وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها" (61).

ومما بدا فيه أن التقديم جرى على غير الأصل لمشكلة رؤوس الآي، تقديم "السميع" على "العليم" في قوله – تعالى: - "فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (62).

وتقديم "الشاکر" على "العليم" في قوله –تعالى: - "إِنَّ الصَّافَّاءِ وَالْمُرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ" (63).

وتقديم "الغفور" على "الرحيم" في أكثر من سبعين موضعاً، وتقديم "الرسول" على النبي" في قوله –تعالى: - "وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا". وتقديم "العلي" على "الكبير" في آيات من سورة لقمان وسبأ والحج والنساء. اعلم أن التقديم في كل هذه الآيات الكريمة ليس لمراعاة الفاصلة وحدها؛ لأن مثل هذا يعاب على الساجع. يقول ابن سنان: "والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأصله، وورد ليصير وصلة إليه" (64).

أفيعاب هذا على الناس في سجعهم ونقول به في النظم المعجز؟! لقد أنكر الإمام محمد عبده القول بمراعاة الفواصل أشد الإنكار فقال: "إن كل كلمة في القرآن موضوعة في موضعها اللائق بها، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة؛ لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة، كما قالوا في كثير من السجع والشعر: إنه قدم كذا، وأخر كذا لأجل السجع، ولأجل القافية، والقرآن ليس بشعر، ولا التزام فيه للسجع، وهو الله الذي لا تعرض له الضرورة، بل هو على كل شيء قدير، وهو العليم الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه" (65).

هذا كلام طيب وبمثله يجب أن ننظر إلى فواصل القرآن، لكن صاحب المنار الذي أثبت هذا الكلام الممتع خالفه أحياناً، ففسر التقديم والتأخير برعي الفواصل، كما أشرنا إلى ذلك في قوله -تعالى-: "رب هارون وموسى". فالتقديم في الآيات المذكورة سابقاً للأسرار البلاغية من ضمنها جمال التناسب في المقاطع التي تنكشف على مهرة في علم البلاغة والنظم القرآني عندما يمعنون النظر فيها، وإن من يتتبع ترتيب الصفات في تذييل الآيات يرى عجباً، ويوقن أن وراءها من أسرار الإعجاز ما لا تحيط به الأقلام، وتقصر عن إدراك كنهه الأفهام، فهي بحاجة إلى مداومة النظر والتدبر بالصبر للوقوف على بعض أسرارها وعدم الركون إلى اليأس، والإسراع إلى القول بتناسب الفواصل.

## النتائج

من خلال هذا المقال وصلت إلى عدة نتائج، ألا وهي:

- 1- التقديم الذكري في القرآن الكريم ليس لمراعاة الفاصلة وحدها، بل هو للأسرار البلاغية – من ضمنها جمال التناسب في المقاطع – الوقوف عليها يحتاج إلى مداومة النظر والتدبر بالصبر.
- 2- ليس في قول الله – سبحانه وتعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين" تقديم العبادة على الاستعانة، بل الترتيب جاء في الآية على الأصل من عطف الخاص على العام، لأن طلب العون من الله دعاء، والدعاء قمة العبادة، وتركه يستوجب العذاب، وقد فسرت به العبادة في قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "الدعاء هو العبادة"، فدل – صلى الله عليه وسلم – بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات.
- 3- الرحمن دال على الصفة القائمة بالله – سبحانه- والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، تأسيساً على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل، في قوله –تعالى- "الرحمن الرحيم"؛ لأن صفة الفعل ناشئة عنها، فهي بمنزلة المسبب من السبب .
- 4- التقديم الذكري في القرآن الكريم ليس لمراعاة الفاصلة وحدها، بل وراءه من أسرار الإعجاز ما لا تحيط به الأرقام، وتقتصر عن إدراك كمها الأفهام، ولا يتطلع عليها إلا من يداوم النظر في النظم القرآني.
- 5- ما تقدم من الكلام فتقديمه في اللسان على حسب تقديم المعاني في الجنان، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء، إما بالزمان، وإما بالطبع، وإما بالرتبة، وإما بالسبب، وإما بالفضل والكمال.
- 6- البلاغة من حيث هي فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه، ولا تعدد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها، كما لا تعدد بألفاظ جميلة تضع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعي.
- 7- الفواصل مقصد من مقاصد النظم، وهو من جلي القرآن الكريم وروافد تأثيره، لكننا نزه القرآن الكريم عن أن يقهر المعاني – في سبيل تحقيق هذه الغاية – على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدث في بناء العبارة ما يجعل توافد المعاني على الأذهان مخالفاً لترتيبها في الجنان.
- 8- أسباب التقديم الذكري تختلف في ذاتها طبقاً لمواقعها ودواعي السياق، فمثلاً التقدم في الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلى .
- 9- قدم هارون –عليه السلام- على موسى –عليه السلام- في آية من سورة طه إبرازاً لدوره، وتركيزاً على مشاركته في الأحداث، بخلاف ذكره بعد موسى – عليه السلام- في آيات أخرى من القرآن الكريم فإنه يوحى بتبعيته، ويبدو في دور المساند لا المشارك.
- 10- السجع محمود إذا وقع سهلاً متيسراً بلا كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما يتخيل لأصله، وورد ليصير وصلة إليه .

## References

- 1- نقدا الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي، الطبعة الأولى، عام 1302 هـ، مطبعة الجوائب، قسطنطينية-تركيا، ص 165.
- 2- الإيقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، عام 1394 هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج 2، ص 105.
- 3- المرجع السابق، ج 2، ص 99.
- 4- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشهير بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، عام 1420 هـ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ج 2، ص 212.
- 5- من بلاغة القرآن، أحمد أحمد عبد الله البليالي البدوي، (ب.ط)، عام 2005 م، نهضة مصر، القاهرة، ص 87.
- 6- الإيقان في علوم القرآن، ج 2، ص 85.
- 7- سورة الحاقة، الآية: 17.
- 8- سورة المدثر، الآية: 30.
- 9- صور البديع، فن الأسجاع، علي الجندي، الطبعة الأولى، عام 1951 م، دار الفكر العربي، ص 99.
- 10- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، الطبعة الثالثة، (ب.ت)، دار المعارف، القاهرة-مصر، ص 258.
- 11- سورة طه، الآيتان: 4 و 5.
- 12- سورة طه، الآية: 5.
- 13- سورة إبراهيم، الآيتان: 38 و 39.
- 14- بحوث قرآنية ولغوية، الشيخ عبد الرحمن تاج، الطبعة الأولى، عام 1990 م، المكتب الثقافي الدولي، ص 112.
- 15- سورة آل عمران، الآيات: 2-6.
- 16- نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، الطبعة الأولى، عام 1412 هـ، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ص 267.
- 17- نتائج الفكر، ص 270.
- 18- تفسير أبي السعود، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، (ب.ت)، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج 5، ص 53.
- 19- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة الأولى، عام 1418 هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت-لبنان، ج 6، ص 190.
- 20- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، (ب.ت)، دار صادر، بيروت-لبنان، ج 6، ص 190.
- 21- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب أي التنزيل، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي، الطبعة الأولى، عام 1413 هـ، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية-الرياض، ص 220.
- 22- تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين، الطبعة الأولى، عام 1990 م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج 9، ص 61.
- 23- سورة طه، الآية: 21.
- 24- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، ص 205.
- 25- سورة طه، الآيتان: 29-30.

- 26- سورة الشعراء، الآية: 13.
- 27- سورة طه، الآية: 48.
- 28- سورة طه، الآية: 63.
- 29- سورة الأعراف، الآيتان: 109 و110.
- 30- سورة الشعراء، الآيتان: 34 و35.
- 31- سورة الفاتحة، الآية: 4.
- 32- حاشية للسيد الشريف على الكشاف، ج 1، ص 64.
- 33- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، عام 1376 هـ، دار إحياء التراث الكتب العربية عيسى الباي الحلبي وشركائه، ص 57.
- 34- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، الطبعة الثالثة، عام 1407 هـ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ج 1، ص.
- 35- تفسير أبي السعود، ج 1، ص 32.
- 36- تفسير البيضاوي، ص 27.
- 37- حاشية الشهاب، ج 1، ص 122.
- 38- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم المعروف بالخازن، تصحيح: محمد علي شاهين، الطبعة الأولى، عام 1415 هـ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ج 1، ص 18.
- 39- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الطبعة الأولى، عام 1984 م، الدار التونسية للنشر، تونس، ج 1، ص 183.
- 40- سورة غافر، الآية: 60.
- 41- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى، عام 1422 هـ، دار الطوق نجاة.
- 42- سورة النجم، الآية: 25.
- 43- سورة النجم، الآيتان: 36 و37.
- 44- سورة الحج، الآيات: من 19 إلى 21.
- 45- سورة الشورى، الآيتان: 48 و49.
- 46- سورة هود، الآيات: 102-106.
- 47- سورة مريم، الآيتان: 10 و11.
- 48- سورة فاطر، الآيتان: 19 و20.
- 49- سورة الفاتحة، الآية: 3.
- 50- سورة النور، الآية: 20.
- 51- سورة التوبة، الآية: 128.
- 52- سورة الفتح، الآية: 29.
- 53- الكشاف، ج 1، ص 15.
- 54- الإنصاف، ج 1، ص 45.
- 55- حاشية السيد شريف، ج 1، ص 45.
- 56- سورة النحل، الآية: 16.

*Scholars' Views About Taqdīm and Ta'kīr in Qur'anic  
Syllables An Analytical Discourse Study*

---

- 57- بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، الطبعة الأولى، عام 1425هـ، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ج 1، ص 24.
- 58- التحرير والتنوير، ج 1، ص 172.
- 59- سورة البقرة، الآية: 143.
- 60- حاشية الشهاب، ج 2، ص 252.
- 61- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرازق بن سعيد الرافعي، الطبعة الثامنة، عام 1425هـ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ص 216.
- 62- سورة البقرة، الآية: 127.
- 63- سورة البقرة، الآية: 158.
- 64- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، الطبعة الأولى، عام 1402هـ، دار الكتب العلمية، ص 164.
- 65- تفسير المنار، ج 2، ص 13.